محاضرة:

أثر الفرق الكلامية الإسلامية في تطور النقد

1-تعريف الفرق الكلامية:

تعدّدت التسميات التي أطلقها العلماء على علم الكلام من ذلك " الفقه الأكبر"، و" علم أصول الفقه"، و"علم العقائد"، ويقصد به ما ظهر من آراء نتيجة للخلافات التي ظهرت عند المسلمين مع وفاة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وازدادت في فترة الصراع حول الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه، واستمرت في العهدين الأموي والعباسي.

عُرِف علم الكلام في البداية أنّه الدفاع عن العقيدة بالأدلة النقلية والعقلية ضد الديانات الأخرى. فقد اهتم بالدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المخالفين لها كالنصارى واليهود والمجوس في فترة الفتوحات الإسلامية. ثم ونتيجة للانقسامات، وللاختلاف بين الفرق الكلامية أصبح علم الكلام يدافع عن العقيدة الصحيحة ضد المبتدعة.

واختلفت الفرق الكلامية من حيث منهجها إلى فرق تعتمد على العقل، أو النقل أو هما معا. فالمعتزلة مثلا فرقة تعتمد على العقل في فهم أسرار الدين وتحديد أصوله. أما الخوارج فهي فرقة تستند إلى الأدلة النقلية وأنه لا اجتهاد مع صريح النقل. والأشاعرة فرقة تتوسط بين العقل والنقل وتحاول الاعتماد عليهما في فهم مسائل الدين والعقيدة.

وتتعدّد الفرق الكلامية الإسلامية وأبرزها: الخوارج، الشيعة، الجبرية، المعتزلة، الأشاعرة، الظاهرية....إلخ. وتقسم الفرق الكلامية من حيث اهتماماتها إلى فرق سياسية كالشيعة والخوارج وهي فرق نشأت نتيجة الخلاف والصراع حول الخلافة، والحكم. وفرق عقدية كالأشاعرة، والمعتزلة لها منطلقاتها وأحكامها في مسائل الدين والعقيدة.

2-عوامل نشأة علم الكلام:

اجتمعت العديد من العوامل التي ساعدت في نشأة علم الكلام بعضها عوامل داخلية عرفها المجتمع الإسلامي، وأخرى عوامل خارجية.

يعدّ القرآن الكريم أبرز العوامل الداخلية التي ساعدت في نشأة علم الكلام، فقد كان التدبر، والنظر فيه سبب نشأة الفقه، وعلم الكلام، بما يتضمن من موضوعات الألوهية كالصفات، والأسماء، وكذا موضوع الجنة والنار، والنبوة، وهو ما ساعد على تكوين خلفية يستند إليها العلماء في مجادلتهم لأهل المعتقدات المخالفة للإسلام. إلى جانب أسلوب القرآن الكريم الذي قدّم أمثلة لمجادلة وتحدّي المشركين، وهو ما اعتمد عليه علماء الكلام كقياس التمثيل في مجادلتهم لخصومهم.

كما ساهمت الآيات المتشابهات التي تحتمل التأويل في ظهور الخلاف بين الفرق الكلامية في تفسيرها وهو ما تسبّب في بروز علم الكلام عند العلماء المسلمين.

وإلى جانب الاهتمام بالقرآن الكريم، وما انبثق عن الاختلاف في تفسير الآيات المتشابهات تبرز العوامل السياسية الناتجة عن الصراع حول الخلافة كعامل داخلي أفرز فرقا كلامية أبرزها الشيعة والخوارج.

أما العوامل الخارجية التي ساعدت في نشأة علم الكلام فقد كان أبرزها الفتوحات الإسلامية التي أتاحت الاحتكاك مع ثقافات مختلفة دخلت إلى الإسلام كالمجوس، واليهود، والنصارى، ما أحدث تصادما وخلافا معهم أدى إلى حرص العلماء المسلمين على الردّ على هجومهم وتشكيكهم في أمور الدين والعقيدة. بالاعتماد على العقل والأدلة المنطقية.

ويبرز إلى جانب الفتوحات عامل الترجمة التي فتحت الباب أمام العلماء المسلمين للاطلاع على كتب الفلسفة، والمنطق التي أنتجها العقل اليوناني ما ساعد في الإلمام بسبل التفكير العقلي، المنطقي، الممنهج والمبني على أصول من الترتيب، والتبويب وهو أساس علم الكلام.

3-إسهامات الفرق الكلامية في النقد الأدبي:

من الجدير بالذكر أن المتكلمين كانوا من أبرز العوامل التي ساعدت على تواصل الثقافة العربية مع غيرها من الثقافات ذلك أنهم كانوا بحاجة إلى " أن يطّلعوا على الأديان الأخرى من مجوسية ويهودية ونصرانية، وكانت اليهودية والنصرانية قد تسلّحت بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، فاضطر المتكلمون أن يتسلّحوا بنفس سلاحهم، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الإسلام، وكان المتكلّمون حلقة الاتصال بين من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد".

وتميّز المتكلمون بالبحث، والتنقيب عن مسائل الفلسفة، والفكر، والأدب في الثقافات الوافدة، وكانوا كثيرا ما يسألون عن مفاهيم لمصطلحات تخص البيان والبلاغة، من ذلك ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين: " قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وعلى هذا النحو كانت تختلط آراء المتكلمين في النقد والبلاغة بآراء الأجانب، وكانوا يتأثرون بهم فيما يضعون من قواعد وأصول. فنجد فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال" التي صورها أفلاطون في بعض محاوراته، وفصّل فيها أرسطو في كتابه " الخطابة" تصل إلى المتكلمين. وأكثَر الجاحظ في بيانه من الحديث عن هذه الفكرة. فمن حين إلى حين يشير إلى أن الكلام طبقات تختلف باختلاف السامعين وطبقاتهم. ويَرِد ذلك أيضا في كتاب " الحيوان" فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة مقامًا.

ويرى شوقي ضيف أن المتكلمين لم يستعيروا فقط هذه الفكرة اليونانية من الأجانب، بل لابدَّ أنّهم استعاروا نظريات أخرى متفرقة.

ويعود الفضل للمتكلمين في وضع كثير من المصطلحات البلاغية والنقدية مثل التشبيه والحقيقة، والمجاز، والاستعارة، وقد لعب الدور العقدي الذي قامت عليه الفرق الكلامية دوره في صوغ هذه المصطلحات، فالقضايا العقدية كانت وراء استخدام المنهج العقلي، واستخدام التأويل، واختراع المصطلحات. من هنا كان دور المتكلمين هاما في تاريخ النقد العربي،

والبلاغة. وتعدّ قضية الإعجاز أبرز القضايا التي شغلت فكر المتكلمين خاصة المعتزلة والأشاعرة. وقد تميّزت دراسات المعتزلة في هذا المجال باستخدامهم سلطان العقل.

وانبثقت عن قضايا الإعجاز، والتأويل، والمجاز، قضايا، ومصطلحات نقدية كان للمتكلّمين الفضل في طرقها والحديث فيها من ذلك الصورة الشعرية التي يجمع المتكلمون على أهميتها في إيضاح المعنى وتقديمه على أكمل وجه، إلى جانب دورها في التأثير على المتلقي وقد توقف عندها الجاحظ، والجرجاني، والزمخشري، والرماني، والباقلاني، وغيرهم من المتكلمين.

كما اهتمت دراسات المتكلمين بالوقوف عند التشبيه، والكناية، والاستعارة، والتفصيل في مختلف وجوه هذه الصور. ولم يغفلوا عن موسيقى الشعر فقد تناولوا السجع والجناس، وكذلك توقفوا عند اللغة الشعرية ففصّلوا في شروط فصاحة اللفظ، وفصاحة التركيب، وفصاحة الأسلوب، وهي كلها قضايا نقدية كان أساسها البحث في إعجاز القرآن، وتأويله.